

الإستظهار والتجربة في الثقافة العربية

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

التعليم الاستظهارى هو التعليم عن طريق الحفظ وحشو الذاكرة بالمعلومات والمعارف ، وأدخار مواد التعليم فى الحافظة . أما التعليم التجريبيى فهو الذى تتحى فيه الذاكرة قدر الامكان ، وتطبق الخبرات والتجارب العملية والمشاهدة العيانية ، وذلك عن طريق تجلى العلم فى العمل . .

وقد مر كل من التعليمين بمراحل كثيرة ، ولقى كل منهما من المناصرة والمعارضة ما انتهى آخر الأمر الى الأوضاع الحديثة التى يجرى العمل عليها فى أغلب المدارس المتطورة مع أحدث مقتضيات الأصول التربوية السليمة .

ولاشك ان هناك بعض المواد الدراسية والمعارف التى لايعنى فيها الا الحفظ المطلق - مع الفهم والادراك طبعاً لما يحفظ - كالنصوص الأدبية من الشعر والنثر ، والنصوص من الكتب المقدسة التى يهتم أهل الأديان باستظهار الصغار والتلاميذ لها عن ظهر قلب ، حتى ولو لم يعوها أو يدركوا معانيها ، أو يتنوقوا البلاغة الفنية فى أساليبها . أما المواد التى كالتبعية والكيمياء وما سواهما من العلوم التجريبية فتحتاج الى الاختبار والتدريب العملى ، أكثر مما تحتاج الى الحفظ والاستظهار وترداد العبارات والقوانين بلا فهم ولا أدراك .

وقد لوحظ أن الأمم القديمة - على وجه العموم - كانت تعنى فى التعليم بالحفظ المكرر المؤكد وأن طالب العلم كان يعتمد على الحافظة وحشو الذهن بالمعلومات أكثر مما يعنى بالتجربة والعمل والمشاهدة - ولم تسلم من ذلك أمة من أمم الشرق والغرب على السواء .

وقد بلغت عناية التربية الاسلامية العربية بالاستظهار والحفظ حدا لفت أنظار المؤرخين . وظهر بين علماء المسلمين جماعة اشتهروا بندرة الحفظ ، وغرائب الاستظهار . ولهم فى ذلك روايات وأخبار تحكى وتدهش . . ألم يحدثنا المؤرخ ابن خلكان فى كتابه « وفيات الأعيان » أن الامام أحمد بن حنبل كان يحفظ عن ظهر قلب ألف الف حديث من أحاديث الرسول عليه السلام وكثيرا ما كان يقتترن حفظ متون

*مجلة الرسالة ، (القاهرة) وزارة الثقافة والارشاد القومى، العدد ١٠٢٠، أول اغسطس ١٩٦٣، ص ١٩-٢٢

الأحاديث مع اسنادها ورواتها ، لا يخطيء الحافظ - في ذلك ، ولا يخلط بين متن وإسناد ، ولا يدخل سند حديث في سند حديث آخر . وهذا هو الامام البخارى صاحب الصحيح المشهور في الحديث ، فقد ذكروا أنه كان يحفظ في سن الصبا مائة الف من صحيح الأحاديث ، ويحفظ ضعف هذا القدر من الأحاديث الموضوعية والمكتوبة .

وإذا كان عدد الأحاديث التي يقال ان هؤلاء الحفاظ الكبار قد حفظوها يختلف بحسب اختلاف الروايات ، فانه مما لا شك فيه أن قدرا عظيما جدا من الأحاديث كان يحفظها الحافظ ، ويستحضرها في ذهنه ، ويستشهد بنصوصها للاحتجاج بها في المسائل العلمية والفتاوى الفقهية المختلفة .

وهناك عامل ديني قوى لا يجوز اغفاله ونحن نتحدث عن الاستظهار في التربية الاسلامية ، فهناك القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف . وقد أنزل الله القرآن وضمن له البقاء والحفظ بقوله تعالى : (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) . وضمان حفظ الله للقرآن يقتضى الإيحاء الى المسلمين بحفظه في الصدور .

ومن هنا لم تكف حركة كتابة القرآن في المصاحف بعد أن استحر القتل بالقراء في بعض الحروب والغزوات ، فعمد المسلمون الى حفظ القرآن وأقبلوا عليه يتدارسونه ويحفظونه عن ظهر قلب ، ويعلمونه أولادهم الصغار في سن مبكرة ، قبل أن يستكمل وعيهم وأدراكهم وتقننهم للمعاني الجميلة العميقة التي يشتمل عليها كتاب الله .

ولقد أوصى العلماء والمفسرون والفقهاء بأن تكون قراءة القرآن وحفظه مقرونة بالفهم للآيات . والتفكير والتدبير في مراميها . فلا يكون الحفظ تردادا لجمل غير مفهومة ، بل يكون مؤسسا على الفهم والتدبر .

وفرق بعض العلماء بين قراءة القرآن وتلاوته ، (فالقراءة تكون لرياضة الألسن ، وتقويم الألفاظ ، ويستحب الأخذ به على المتعلمين ، والترتيل والتلاوة يكونان للتدبر والتفكير والاستنباط)

ومن هنا تظهر عناية العلماء المسلمين بعنصر « الفهم » لما يقرأ ويحفظ . ولكنهم اختلفوا في الصبى الذى يحفظ القرآن في بيته أو في الكتاب ، كيف يستطيع إدراك معانى القرآن وما يحتويه من أوامر ونواه ، ومن وعد ووعد ، ومن دعاء واستغفار ، ومن أدلة على وجود الله وصفاته ، وهى كلها من الأمور التي تعلو على مستوى الصبى ، وتتسامى على أدراكه الصغير المحدود . ولهذا لم يجد الامام أبو بكر بن العري حرجا في الدعوة الى تأخير حفظ الصبى للقرآن الى سن متأخرة ، حتى يستقيم له قدر من الادراك يعينه على فهمه . وأعجب مؤرخنا عبد الرحمن بن خلدون بهذه الفكرة فوافق عليها . . وان كان خضع آخر الأمر للتقاليد المتبعة ، فأوصى مع العرف بالبدء في تعليم القرآن ، أملا في أن يجيء الفهم بعد ذلك في مرحلة تالية للحفظ المجرد .

وقد بلغ من حرص المسلمين على الحفظ والاستظهار للعلوم والمعارف أنهم كانوا يجعلون الحفظ في الصدور غناء ينفع عندما يفقد الكتاب أو يمحي سطوره . ولموفق الدين اليعقوبي عبارة ماثورة في أهمية «الحفظ» يقول فيها: (إذا قرأت كتابا فاحرص على أن تستظهر وتملك معناه . وتوهم أن الكتاب قد عدم، وأنك مستقن عنه لاتحزن بفقدته) . وسرت عدوى الحفظ والاستظهار للمادة العلمية من النصوص الدينية الى النصوص الأدبية كذلك .

ف نجد رجالا مثل بديع الزمان الهمذاني ، والخوارزمي ، وابن العميد ، والصاحب بن عباد ، والشاعر أبي تمام وغيرهم يتباهون بحفظ أقدار هائلة من أشعار العرب، حتى أن وزيراً مشهوراً يشترط لمن يدخل عليه أن يكون حافظاً لآلاف من أبيات الشعر، فيسأله الحافظ الراوية المتحدى : أهذا القدر من شعر الرجال أم النساء ؟ .

وقد وضع بعض المسلمين « معينات » تعين على الحفظ وقوة الاستظهار ، ويشغل بعضهم نفسه باستنباط هذه الوسائل أو تلك ، حتى لقد رأينا الشيخ برهان الاسلام في كتابه المخطوط المعنون « تعليم المتعلمين على الكمال » يلخص بعض « وصفات » لتقوية الذاكرة ، منها وصفات صحية ، لما بين الصحة الجسمية والصحة العقلية من ارتباط ، ومنها وصفات دينية روحية خلقية . فمن الوصفات الصحية : الاقلال من الطعام ، والبعد عن امتلاء المعدة وعن كل ما يسبب البلغم ، ونظافة الأسنان ، وأكل الزبيب الأحمر كل يوم على الريق ، وشرب العسل . ومن الوصفات الروحية النفسية : البعد عن المعاصي وعن الهموم والأحزان .

اما الهموم فلأنها تؤثر في النفس والبدن كما قال المتنبي :

والهم يخترم الجسيم نحافة ويشيب ناحية الصبي ويهرم

وأما المعاصي فقد نسبوا الى الامام الشافعي شكواه من ضعف الحافظة يوماً

ووصفه العلاج بقوله :

شكوت الى وكيع سوء حفظي فأرشدني الى ترك المعاصي

وأرشدني بأن العلم نور ونور الله لا يهدى لعاصي

والعامل الديني في الاهتمام بقوة الحفظ والاستظهار بمضافا اليه العامل الأدبي يقويهما اعتبار اجتماعي أخر أملت الظروف الاجتماعية عند العرب، فقد كان شيوع الأمية في الجزيرة العربية عاملاً من عوامل الاعتماد على الذاكرة وقوة الحافظة . فإن فقدان الأثر المكتوب في كتاب يجعل حفظه في الصدر شيئاً ضرورياً ، ومن هنا جاء الاهتمام بالرواية والرواة ، ومن هنا أيضاً وجدنا عصراً من عصور الرواية والحفظ والتدوين ، حتى كان هؤلاء الرواة الحافظ موضع التقرب والخطوة من الخلفاء والأمراء والولاة .

على أن من الحق والانصاف أن « الحفظ » وحده لم يكن عاملا فعلا في استيعاب المادة العلمية ، فقد كان « الفهم » ضروريا بجانبها كما سبق القول . فان من الظلم لأصول التربية الثقافية والمدرسية في الاسلام أن نتهمها دائما بالاعتماد على « الاستظهار » والحفظ وحده . فان العقلية العربية الاسلامية لم تتفل قيمة الفكر والتدبير والفهم من حسابها . وكيف يكون ذلك وفي القرآن الكريم آيات تحث على التفكير والنظر والتدبير . فالتفكير والفهم غاية من غايات التربية الاسلامية . وأول آية نزلت من القرآن تحض على القراءة ، ثم تنبه الى مافى عجائب صنع الله . وهذا التنبيه هو مثار للتفكير ، لا الأخذ بالقضايا المسلمة .

وهذه الآية يقول : (أقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق) فالقراءة وحدها لا تكفى ، وانما يصاحبها التفات الى عجائب الخلق .

ومن حسن حظ الفكر الاسلامي ان بعض علماء الاسلام نظروا الى الحفظ على انه وسيلة فقط للتحصيل ، لا غاية ينتهى اليها الطلب . ولحاجى خليفة صاحب كتاب « كشف الظنون » كلام فى هذا يقول فيه : (ان من كانت عنايته بالحفظ اكثر من عنايته الى التحصيل . والملكة لا يحصل على طائل من ملكة التصرف فى العلم . ولذلك نرى من حصل الحفظ لا يحسن شيئا من الفن ، وتجد ملكة قاصرة فى عمله ان فاوض او ناظر . وانما المقصود هو ملكة الاستخراج والاستنباط وسرعة الانتقال من الدوال الى المدلولات ، وان انضم اليها ملكة الاستحضار فنعم المطلوب) .

وحذر بعض علماء المسلمين ومعلميهم من كتابة شئ بغير « فهم » . وفى هذا الشأن يقول الشيخ برهان الاسلام فى كتابه ناصحا المتعلم : (وعليه ان لا يكتب شيئا لا يفهمه ، لأن ذلك يورث كلال الطبع ، ويذهب الفطنة . وينبغى له أن يجتهد فى « الفهم » من الاستاذ ، ويكثر من التأمل والتفكير) .

ومن أدباء أمتنا العربية من نستطيع بحق أن نعدده فى مقدمة أنصار المذهب التدريبي العملى ، على الرغم مما يحيط بالأديب من ملابس الحفظ والاستظهار .

فعدنا « الجاحظ » الذى اتهمه المفكر الفرنسى رينان بأنه كبقية علماء العرب والاسلام فى الاعتماد على الحفظ لاعلى البحث ويكاد المؤرخ المفكر « كارا دى فو » يؤيد الفيلسوف رينان فى هذا الاتهام بوصفه مؤلفات الجاحظ بأن الطابع الادبى هو الغالب عليها ، لا الطابع العلمى . وهذا كلام ننقضه من كلام الجاحظ نفسه ، ومن طريقته فى التأليف ، وخاصة فى كتابه « الحيوان » الذى يقول فى مقدمته : (وهذا كتاب تستوى فيه رغبة الأمم ، وتتشابه فيه العرب والعجم ، لأنه وان كان عربيا أعرابيا ، واسلاميا جماعيا ، فقد أخذ من طرف الفلسفة ، وجمع معرفة السماع وعلم التجربة ، واشرك بين علم الكتاب والسنة ، وبين وجدان الحاسة واحساس الغريزة) . وذكر الحاسة هنا وفى

غير موضوع من كتاب الجاحظ يدل على اهتمامه بالتجربة والخبرة الحسية . وهو يميل دائما الى « المعاينة » ، ويقول عنها : (ليس شئ يشفينى الا المعاينة) . فهو لا يعتمد على السماع والنقل والحفظ ، لكنه يعتمد على الرؤية التى هى سبيل من سبيل البحث العلمى التجريبي . على انه كثيرا ما جمع بين الرؤية والتجربة . واستعانته بالحواس فى التحقيق مماثلة لاستعانة الفيلسوف « بيكون » بها فى القرن السادس عشر الميلادى . وقد سبق الجاحظ العربى المسلم الفيلسوف بيكون ببضعة قرون الى المناداة بطريقة التجربة والتدريب العملى ، فاستعان بالحواس ، وأوصى بعدم المغالاة فيها لأنها تخذع ، واستعان بالتجربة ، حتى ليزدحم كتابه « الحيوان » بمئات من التجارب التى أجراها هو بنفسه ، ليصل الى الحقيقة العامة المراد الوصول اليها .

ومن تجارب الجاحظ فى كتاب الحيوان قبضه على الحيوان بنفسه أو بغيره ، ليقف على حركته ، كقوله فى الأفاعى : (وفى الأفاعى من العجب أنها تذبج حتى يفرى منها كل وديج ، فتبقى أياما لاتموت . وأمرت الحارثى ، فقبض على خرزة عنقها ، فقلت له : أقبضها من الخرزة التى تليها قبضا رفيقا ، فما فتح بينها بقدر سم - أى ثقب - الابرة حتى بردت ميتة) وكذلك تجربته على بعض الحيوانات بدفنها فى بعض النبات ليعرف حركتها ، كما فعل فى « الجعل » حين دفنه فى الورد فمات ، فلما أعيد الى الروث عادت اليه حركة الحياة من ساعته . . والأدق أن نقول انه عمل التجربة فى خنفساء ، لقراءة ما بين الاثتين .

وهكذا ترى الجاحظ الأديب ، عالما تجريبيا عمليا متطلعا الى المعرفة عن طريق الخبرة والتجربة ، فقد ذاق مثلا الشبوط ، ليعرف طعم احمه . . ولايكفى بما يسمعه عن العقرب مثلا وعن حملها لعشرات الصغار من أولادها فى بطنها ، بل نراه يلجأ الى عقرب ، فيبيع بطنه بنفسه .

ويذكرنا ما فعله الجاحظ فى تاريخ المعرفة العربية بما فعله « رابليه » الفرنسى فى تاريخ التربية والتعليم فى القرن السادس عشر الميلادى ، أى بعد الجاحظ ببضعة قرون ، فقد دعا هذا المفكر الحر الى نبذ المذهب الجدلى الذى كان سائدا حينذاك ، والذى ناصره جماعة من أهل المباحكة والجدل أراونا معرفة عالم الطبيعة - لامن العالم الراقعى نفسه - ولكن من خلال نظريات أرسطو ومعتقدات الكتب المقدسة . ولعل هؤلاء الجدليين كانوا متأثرين فى انعزالهم عن الخبرة والتجربة المادية الواقعية بموروثاتهم الدينية التى كانت تؤمن بأن العالم المادى ماهو الا دار فناء ، لاداعى لاجهاد النفس بدراستها . . فجاء رابليه وغير مفهوم النظر الى العالم الطبيعى .

لقد لقي الاستظهار والحفظ من غير تفكير ولاتجربة ولامعاينة مقاومة من مفكرى العرب وغير العرب على السواء . وليس الغربيون فى هذا بأسبق منا ، ولا كانوا فى

التجربة بأعرق ولا أفضل .. فقد أثبت تاريخ التربية والثقافة والمدارس أن الغربيين كانوا غارقين فى لجة الاستظهار والحفظ عن ظهر قلب الى الحد الذى ازعج مفكريهم وجعلهم يتنبهون وينبهون الى الخطر المحقق . وما زالت الرسائل الممتعة التى كتبها المفكر الفرنسى « الفونس اسكيروس » فى كتابه : « التربية الاستقلالية » موضع الاعجاب حتى يومنا هذا . فهى لم تفقد جدتها ولا لنتها على الرغم من اتجاه المدارس كلها اليوم نحو المذهب التجريبي فى حدود امكانيات كل أمة واستعداداتها .

ومن مفاخر الذهنية الاسلامية أن الامام الشيخ محمد عبده هو أول من نبه الى قيمة كتاب أسكيروس فى التربية ، وأوصى بترجمته . واستجاب لذلك رجل من خيرة رجال القضاء فى مصر سنة ١٨٩٩ ، وهو وقت يواكب صيحات ايبل ، ولييمان ، وجوستاف لوبون للتحرر من طريقة الحفظ فى المدارس . ومن أجمل ما قاله الفونس اسكيروس فى معرض الموازنة بين الحفظ والتفكير لدى الأطفال قوله : (قد يسأل سائل : هل التفكير مما يتعلمه الطفل ؟ فأجيبه : هذا ما أعتقده . غير أنه ينبغي التمييز التام بين ما يتلقاه من غيره من الافكار ، وبين ما يستنتجه هو منها بنظره الى الأشياء . ونحن فى تخاطبنا معه لانفعل شيئاً سوى تأدية أفكارنا اليه على وجه التمام أو النقص ، مع أن الذى كان يجب علينا أن نصرف همتنا اليه هو ايقاظ ذهنه ، واستنباط أفكاره وأرائه . فأذهان من يعاشرون الكبار من الأطفال محشوة بجمل من الكلام لا يهتمون منها فى معظم الأحيان إلا معانى فى غاية التشابه والالتباس .. وليس شحن أذهانهم بهذه الجمل مما ينمى فيهم قوى الادراك والفهم بحال من الأحوال ، ولكنه ابهاظ لها بما ليس من حقه أن يكون فيها) .

ونحمد الله أن آراء مفكرينا العرب التجريبيين ، ومفكرى الغرب التجريبيين قد انتهت بالانسانية الى النتيجة التى تتمتع بها مدارسنا الحديثة من ايثار لاختبرة والتجربة والمعانية على الحفظ والاستذكار .